ان يعاشروا السكان ويعلموهم و يساعدوهم وقد سميت كذلك نسبة الى المستر تورنبي الذي اشتهر بعلمه وفضله ومبراته الكثيرة وكان لهُ اليد الطولى في انشاء هذه الدار ثم توفي شابًّا وعمرهُ احدى وثلاثون سنة واقترحت مسز بارنت الكاتبة ان تسمى باسمه فانشأها زوجها القانون بارنت وسميت باسم تورنبي . ووصفت في هذه المقالة كيفية اهتمام جلة القوم من الانكليز ولاسيما من تلامذة اكسفرد وكمبردج باصلاح شأن الفقراء

وقد طالعنا كثيرًا مما يكتبهُ نساء الافرنج في مواضيع مختلفة فرأيناهن يطرقن في الغالب المواضيع الادبيَّة التي من هذا القبيل ولا يكتفين بالاقوال والآراء بل يدرسنَ ويبحثنَ ويحققنَ ثم يستخلصنَ نتيجة بحثهنَ وينشرنها والغالب انهنَّ يكتسبنَ باقلامهنَّ كما يكتسب الرجال لانهنَّ يتأهلنَّ للكتابة مثلهم ويجتهدنَ اجتهادهم

## سدني كوبر المصور

اذا صحَّ للناس ان يكرموا الذين فاقوا في اتقان الفنون المادية التي تقضى بها حاجات الجسد العرضيَّة فما اخلقهم ان يبالغوا في اكرام الذين اتقنوا الفنون الجميلة التي تقضى بها حاجات النفس الجوهرية كالشعر والموسيقى والتصوير

على ان الناس لم يقصروا في اكرام الشعراء والموسيقيين والمصورين في كل عصر وقطر فان كان اليونان قد اكرموا ارسطو وسقراط وافلاطون وغيرهم من كبار فلاسفتهم فهم قد الهُوا هوميرس شاعرهم المشهور من قبلهم وفيدياس النحات الشهير . وان كان الرومان قد اقاموا التماثيل لفلاسفتهم فهم قد رفعوا اسم فرجيل شاعرهم فوق كل اسم . وذكر رفائيل وانجلو ودانتي وروسيني احلى في مسمع كل ايطالي من ذكر غليليو . والالماني يطرب لذكر جيتي وبيتهوفن اكثر مما يطرب لذكر هجل الفيلسوف الكبير . وذكر هيجو عند الفرنسوي اطيب من ذكر لافوازيه وديماس . وكل انكليزي يرى في صور كوبر الحقيقية من المعاني ودواعي انبساط النفس وانشراح الصدر ما لا يراهُ في صور الفيلسوف هربرت سبنسر الخيالية

وكوبر الذي نحن في صدد الكلام عليهِ من اعظم مصوري الانكليز في القرن التاسع عشر واعظم ما اشتهر بهِ صورهُ عن قطعان الغنم والبقر السائمة في مراعيها الرابضة في مراتعها فوصف بقلم المصور قناعة البقر ووداعة الغنم وصفًا يعجز ابلغ الكتَّاب عن المجيء بمثلهِ لانهُ مثَّل بهِ الطبيعة كما ترى في الصورة التالية

ولد صاحب الترجمة سنة ١٨٠٣ ايام كان الانكليز يحاصرون عكاء بقيادة الاميرال السر سدني سمث وكان لهُ عمٌّ من ضباط بارجتهِ فلما انتهى الحصار سأَلهُ السر سدني سمث عما اذا كان عندهُ اخبار من عائلتهِ في انكلترا فاجابهُ ليس عندي اخبار تذكر سوى انهُ ولد لشقيقي ابنٌ آخر منذ غادرنا انكلترا فقال لهُ السر سدني قل لهم اذا ان يسموهُ باسمي. ولكن لم يبلغهم ذلك حتى كانوا قد عمّدوا الطفل وسموهُ توماس فاتخذ لنفسهِ اسم سدني فيما بعد فصار اسمهُ توماس سدني كوبر

ولد فقيرًا وعاش كذودًا. وشغف بالتصوير وهو طفل صغير ولما بلغ التاسعة من عمرهِ لم يكن في جيبهِ درهم فبي ذات يوم تأبط لوح حجر وسار الى المروج يشمّ منقبض النفس لفقرهِ وكان قد لقي رفيقًا لهُ في اثناء الطريق فاخبرهُ رفيقهُ ان اباهُ سيرسلهُ مرتين في الاسبوع الى معلم لتعلمهُ الرسم والتصوير فزاد وجهُ كوبر اكتئابًا ونفسهُ انقباضًا على ذلك الخبر. فسار الى المروج المذكورة وجعل ينتقل فيها من مكان الى مكان حتى قاربت الشمس الزوال واخذت تتوارى في الحجاب وسالت بفيض شعاعها الذهبية الاودية والهضاب فأثر ذلك المنظر تأثيرًا عظيمًا في نفسهِ وصورهُ بعد اربعين سنة فجاءت صورتهُ بديعة المثال بعيدة الشهرة فسماها "انقشاع الغيوم عند المغيب" وكانت رائد اشتهارهِ واول معارك انتصارهِ

ولما بلغ الحادية عشرة من العمر كان بونبارت يتهدد اوربا بحروبهِ فرأى بلوخر في لندن قبل اشتراكهِ مع دوق ولنتون في معركة ووترلو الشهيرة ورأى الجنود تجمع استعدادًا للذهاب الى محاربة بونبارت بعد هربهِ من جزيرة ألبا وكان اذ ذاك تلميذًا في المدرسة

قلنا انهُ كان فقيرًا فلم يستطع الانفاق على نفسهِ لتعلُّم التصوير ولكن صديقًا لاهلهِ استخدمهُ لدهن المركبات وتلوينها فتعلَّم التلوين وتمرَّن عليهِ مدة واهدى اليهِ بعض المصورين رزمة من اقلام الرسم والتلوين ولكن لم يكن معهُ سيراة ليبريها بها فرأى ذات يوم كاهنًا يتمشى على الطريق وبداهُ خاف ظهرهِ فتقدم منهُ وسأَلهُ عما اذا كان معهُ سكين فأجابهُ بالايجاب وقال ماذا تريد بها فاخبرهُ ببرادهِ فرقَّ لهُ وبرى اقلامهُ كلها وكان كوبر قد اراهُ بعض صورهِ فاعجب بها واطنب في مدحها ثم سار في سبيلهِ ولم يكد يغيب عن بصرهِ حتى علم انهُ رئيس اساقفة كنتربري وكان في طليعة الذين جرَّأوهُ على عملهِ فانهُ اشترى صورة من صورهِ بخمسة جنيهات وكان قد طلب بها خمسة شلينات

ولم يعدم نصراء آخرين غير رئيس الاساقفة فان طبيبًا في الجيش رثى لهُ وكان بارعًا في التصوير فعلمهُ بعض الشيء منهُ . وما زال يكدُّ ويجدُّ حتى استخدم في جمعية تمثيل لتصوير

المناظر وكانت تعطيهِ جنيهاً في الاسبوع . ولكنهُ عاد بعد ذلك الى دهن المركبات وتلوينها حتى اسعدهُ الحظ بدخول مدرسة التصوير فدرس فيها بعض المبادىء الى ان اضطرهُ اعوازهُ ان يعود الى وطنهِ حيث اخذ في تعليم مبادىء الرسم والتصوير لبعض الاولاد فكان يقطع نحو ١٥٠ ميلاً في الاسبوع وهو يجول من مكان الى مكان لتعليم صناعتهِ

منقولة عن صورة من صور كوبر الشهيرة

ولما بلغ الرابعة والعشرين اتفق هو وصديق لهُ على السفر الى اوربا والاشتغال بفن التصوير هناك فسافرا الى فرنسا ولم يكونا يعرفان الفرنسوية ولكن كوبر كان يحسن اللعب على الفلوت فقال لصديقهِ اذا لم استطع كسب رزقي بالتصوير كسبتهُ باللعب على الفلوت . ثم سافرا الى دنكرك فبروكسل عاصمة البلجيك وجعلا يعملان اولاً في كتابة آرمات الحوانيت ودهنها . ووجد كوبر تلاميذ من كبراء القوم فتعرف باحد مشاهير المصورين بواسطتهم

ولم تمضِ على ذلك سنتان حتى تزوج ابنة رجل انكليزي ساكن في بروكسل ثم عاد الى انكلترا بامراتهِ وكان في جيبهِ ثلاثة عشر جنيهاً لا غير فاقام في كنتربري ثم في لندن حيث اتفق هو ورجل آخر ان يرسم لهُ رسوماً على ان يأخذ خمسة شلينات ثمن كلٍ منها فنجا بذلك من مخالب الموت جوعاً هو وزوجتهُ

وذات يوم جال في خاطره ان يصوّر البقر والغنم التي في الحديقة المعروفة برجنت بارك وكان ذلك بدء عمله الحقيقي فجعل يذهب كلّ يوم الى المكان المذكور وفي جيبه برنقالة وقليل من الكعك ثم يجلس يرسم ويصوّر البقر والغنم حتى الساعة الرابعة مساء وكان يصورها في جميع حركاتها وسكناتها ولفتاتها وجثماتها . وكان بين تلك الانعام بقرة اراد تصوير حركاتها وهي تقضم العشب وتمضغهُ ولكنها كانت كثيرة الحركة لا تستقر على حال فاتعبتهُ جدًّا وقد قدّر انهُ مشى نحو مئة ميل في اثرها حتى استطاع تصويرها

وقضى العمر وهو يعود الى تصوير قطعان الغنم والبقر وما يتّصل بها من مناظر المزارع والحقول والرعاة والفلاحين حتى بلغ فيها حد الابداع وصار لصوره المقام الاول في معارض الصور وتهافت المصورون على نقلها اكثر مما تهافتوا على نقل غيرها . وقد انتقدوا عليهِ في اول الامر هذا التكرار بل هذا الاخصاء لكنهم عادوا فاعترفوا لهُ بالفضل وبانهُ اجاد في اتقان شيء يتعذر على المرء اتقانهُ ان لم ينقطع لهُ . وقد خالف مقتضى طبعهِ مرارًا لكنهُ ما لبث ان عاد اليهِ حالاً وقد قال في صدد ذلك ما ترجمتهُ

" لقد حاولت مرارًا ان اطلع فوق المناظر العادية مناظر الحقول والقطعان لكنني كنت كمن يخالف طبعهُ فلا يقر لي قرار حتى اعود اليها "

ولم يكن قويّ البنية ومع ذلك عاش تسعًا وتسعين سنة . ولما بلغ الخمسين من عمره اصابتهُ تخمة شديدة وكان طبيبهُ يظنهُ انهُ لا يعيش الى الستين فهجر سكن المدن وفرّ الى الجبال للاستشفاء من دائهِ ولكن صحتهُ لم تتحسن في بادىء الامر حتى ان طبيبهُ قال لهُ " كل ما استطيع عملهُ لك هو ان اخفف عنك آلامك لا ان اشفيك لانني لا استطيع ان اخلق لك معدة جديدة " فاجابهُ كوبر " اذًا انا اشفي نفسي " وهكذا فعل . فانهُ انقطع عن مآدب لندن وولائمها وهوائها المتكاثف بالدخان الى عيشة الجبال باكلها البسيط وهوائها النقيّ . وهاك ما كتب في وصف معيشتهِ حينئذٍ قال : —

" بذلت جهدي في استعادة صحتي فكنت انهض باكرًا وانصب لوحة التصوير قبل الفطور ثم اتناول الطعام الساعة الثامنة وكنت غالبًا ابدأ العمل قبل الطعام . ولم اصوّر داخل المنزل بعد الساعة الثالثة . وكنت امشي خمسة اميال او ستة كلّ يوم قبل العشاء ولكنّ ذلك لم يشفني من التخمة والاضطراب العام الذي المّ بي . ولقد عشت عيشة حرة غير مقيدة بقيود الهيئة الاجتماعية وروابطها حتى بلغت الثلاثين من العمر فلم اشرب كاسًا من الخمر لاني لم اعاشر الذين يشربونها ولا كانت دنياي تمكنني من شربها . وساعود الآن الى

عيشة البساطة فاترك شرب الشاي واكتفي بالطعام الساذج في الصباح من مطبوخ الدقيق والملح بلا لبن . وأعني بمضغ طعامي جيداً فلا احمّل استاني ما يجب ان تحملهُ السكين ولا احمّل معدتي ما تستطيعهُ اضراسي . ولا آكل اكثر مما اظنهُ كافياً لي لانني لا اريد ان انيش قبري باسناني وقد عزمت ان اسيّر حياتي في المستقبل على الخطة التي اتبعتها في صباي وهذا استطيعهُ في القرى اكثر مما استطيعهُ في المدن"

فكانت نتيجة السير على هذه الخطة انهُ عاش تسعاً وتسعين سنة . ولما بلغ السنة الثامنة والثمانين كان يستطيع القراءة بلا نظارات ويحسن التصوير بالالوان اكثر مما كان يحسنهُ وهو ابن ستين سنة وهذا ما قالهُ وهو يناهز التسعين : —

" اؤكد ان الرياضة اليومية وانتظام المعيشة وخصوصاً انتظام ساعات الطعام خير مساعد للانسان على مداواة عسر الهضم . فقد كنت امشي خمسة اميال او ستة كل يوم اما الآن فامشي ثلاثة او اربعة ولكن بانتظام وفي سرعة واحدة . واصوّر كل يوم من الساعة السابعة صباحاً في فصل الصيف والساعة السابعة ونصف في فصل الشتاء حتى الساعة الثامنة وهي وقت تناول الطعام وبعد الطعام اعود الى التصوير حتى الغداء الساعة الثانية عشرة فآكل جيداً واشرب قليلاً ثم اصوّر حتى الساعة الثالثة وحينئذٍ اخرج للنزهة واعود قبيل الساعة السادسة فاغتسل ثم اجلس للعشاء الساعة السادسة وكنت اشرب كأساً من الخمر مع العشاء ولكنني هجرتها وهجرت سائر انواع الخمر بعد مرضي الاخير . ثم اقرأ الجرائد . وفي الساعة التاسعة ادخن سيجاراً ثم انام الساعة العاشرة"

وعاش كذلك الى ان توفي في السابع من شهر فبراير سنة ١٩٠٢ وعمرهُ تسع وتسعون سنة وكانت شهرتهُ في تصوير المناظر الطبيعية قد طبقت البلدان وجمع من ذلك ثروة طائلة فانشأ مدرسة للتصوير في بلدهِ ووقف عليها ما يقوم بنفقاتها

هذا ومَن طالع فصل المصورين العظام في كتاب سر النجاح يجد ان كثيرين منهم نشأوا في الفقر وقاسوا شظف العيش وتحملوا اشد المشاق قبلما عرف معاصروهم قيمة اعمالهم وقدروهم قدرهم . ومنهم من مات ولم يُقدَّر قدرهُ الاَّ بعد موتهِ وكان بيت على الطوى وتمرُّ الايام وهو لا يكاد يجد كفافهُ من الطعام . فلم يكن كوبر من الشواذ التي لا يبنى عليها حكم بل كان شأنهُ شأن كثيرين غيرهِ من كبار المصورين . فعسى ان يكون ذلك مشدّداً لعزائم الذين تعاطوا هذه الصناعة من ابناء الشرق ولم يروا من مواطنيهم الاقبال الذي ينتظرونهُ